(الصراع الاوربي الجزائري أواخر العهد العثماني)
-الحملات الاسبانية على الجزائر أنموذجاً (1775 -1784)-

أ/ بن موفقي امحمد، جامعة الجلفة

ملخص: مثل الصراع المسيحي الاسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط ابرز سمات الفترة الحديثة والذي كان منطلقه الزماني نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م ،حيث كانت الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ممثلة في الدول المغاربية وعلى وجه الخصوص الجزائر عرضة لحملات صليبية متعددة من طرف الاسبان ، فمثلت اسبانيا المسيحية اكثر الدول عداءً للجزائر ،فالصراع معها كان اكثر الصراعات شراسة ،وهذا مايعكسه عدد الحملات الاسبانية ضد الجزائر طيلة العهد العثماني، والتي امتدت الى أواخر القرن الثامن عشر ،وظل التلويح بالقوة العسكرية تجاه الجزائر هو التقليد الغالب على السياسة الاسبانية ،ففي أواخر القرن 18م سعت اسبانيا بكل الطرق الدبلوماسية إلى إبرام معاهدة سلام مع الجزائر، رغبةً منها في التّخلص من الضّغوطات المتواصلة التي تتعرّض إليها سواحلها من طرف البحرية الجزائرية، وبعد فشل مساعيها في هذا الاتجاه قرّرت القيام بعمل عسكري للقضاء على التّهديدات التي كانت تشكّلها الجزائر على السّواحل والتّجارة الإسبانية في تلك الفترة ،ولتحقيق مبتغاها قامت في العقدين الاخرين بثلاث حملات عسكرية متتالية :1775 ،1783 ، 1784 فكان لهذه الحملات انعكاسات هامة على مسار العلاقات بين الطرفين في المرحلة التي تلتها .

كلمات مفتاحية: (الصراع الاوربي الجزائري، العهد العثماني، الحملات الاسبانية)

Abstract : Such as the Christian-Islamic conflict the most important manifestation of the modern period, Since the end of the 15th century and the beginning of the 16th century the southern part of the Mediterranean was attacked by the Spanish, as the most hostile countries to Algeria, This is evident from the number of Spanish military campaigns during the Ottoman period, which were sealed by three successive military campaigns at the end of the 18th century, 1775,1783,1784 but all these campaigns were the end of the failure of the walls of the city of Algiers, and these campaigns had multiple results on both sides and th course of bilateral relations The next stages .

لقد ارتبط الصراع المسيحي الاسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط في الفترة الحديثة بالصراع الجزائري الاسباني ،هذا الصراع الذي امتد طيلة العهد العثماني كان اكثر الصراعات شراسة ،وهذا مايعكسه عدد الحملات الاسبانية ضد الجزائر ،والتي امتدت الى أواخر القرن الثامن عشر ،وظل التلويح بالقوة العسكرية تجاه الجزائر هو التقليد الغالب على السياسة الاسبانية ،ففي أواخر القرن 18م سعت اسبانيا بكل الطرق الدبلوماسية إلى إبرام معاهدة سلام مع الجزائر، رغبةً منها في التّخلص من الضّغوطات المتواصلة التي تتعرّض إليها سواحلها من طرف البحرية الجزائرية، وبعد فشل مساعيها في تحقيق الصلح، قرّرت القيام بعمل عسكري للقضاء على التّهديدات التي كانت تشكّلها الجزائر على السّواحل والتّجارة الإسبانية في تلك الفترة ،ولتحقيق مبتغاها قامت في العقدين الاخرين بثلاث حملات عسكرية هي:

- حملة الكونت أوريلّي 1775 م.
- حملة دون أنطونيو بارسيلو الأولى على مدينة الجزائر 1783م.
- حملة دون أنطونيو بارسيلو الثانية 1784م .

1- حملة الكونت أورللّي"Oreilly" 1775م :

يُعتبر الهجوم الإسباني على مدينة الجزائر عام 1775م من المعارك المهمة، والوقائع الحاسمة من حيث تطوراتها، أو النّتائج التي أسفرت عنها، لقد قرر الملك الإسباني خلال هذه الحملة معاقبة الجزائر، لوقف المناوشات التي تقوم بها في البحر المتوسط ضدّ

المصالح الإسبانية، ولقد كان وراء هذه الحملة جملة من الدوافع تمثلت في مايلي :

-كانت طموحات الملك الأسباني"كارلوس الثالث" كبيرة في شأن الصراع الجزائري الاسباني، لأن الأمل كان يحدوه، من أجل تحقيق ما عجز أسلافه عن تحقيقه مثل "شارل الخامس"، في حملته سنة 1541م، كما شكّلت هذه الحملة تحديًا كبيرًا، لأنها تمثل أول امتحانٍ له في شأن الصراع الجزائري الإسباني، بعد تولّيه عرش اسبانيا.

- رغبة اسبانيا في التَّعويض عن هزائمها بالقارة الأوربية، ففي حرب السَّبع سنوات، التّي جرت أطوارها في الفترة الواقعة بين 1756-1763م خرجت إسبانيا مهزُومة ضمن التَّحالف الذي جمعها بكل من فرنسا، والنّمسا، ضدّ إنجلترا وبروسيا، وخسرت العديد من ممتلكاتها في العالم الجديد، ومما لا شك فيه، أنّ هذه الحروب المتواصلة، أنهكت إسبانيا كثيرًا على الصعيدين العسكري و المالي، فضلاً عن خسارتها لعدّة مواقع في أوربا والعالم الجديد[1].

- وصول القيادات الإسبانية إلى قناعة بشأن صراعها مع الجزائر، وهي زيادة الضّغوطات العسكرية من أجل احتلال مدينة الجزائر، وبالتالي وضع حد نهائي لتهديدات النشاط البحري الجزائري، أوالتوصل إلى إبرام صلح يخدم الطرفين.

- فشل المساعي الإسبانية في عقد الصلح مع الجزائر حيث استغلّت اسبانيا فرصة تعيين الداي الجديد"محمد بن عثمان باشا"، بعد وفاة "علي بوصبع" ،وأرسل إليه مهنّئًا بالمنصب الجديد، طالبًا منه الصُّلح مع مملكته مقابل مبالغ مالية كبيرة، لكن الدَّاي الجديد كرّر لمبعوث الملك موقف سلفه وقال له: «...إنّني لا أخاف من القوّات الإسبانية،و إنّ السّلاح هو الفيصل بيننا... [2]»

– سير الحملة:

وأمام هذا الموقف المتصلّب من الداي"محمد بن عثمان" تّجاه إسبانيا،لجأ الملك"كارلوس الثالث" إلى استخدام القوّة العسكرية، وأعدّ من أجل ذلك حملةً كبيرةً، فأمر جيوشه في كل من قادش، وبرشلونة، وقرطاجنة، بالقيام بالتحضيرات اللازمة من تجميع للفيالق، والعتاد، والذخيرة، والمؤن والآليات الضرورية لهذه المأمورية، وشرع في التحضير لهذه الحملة منذ بداية جوان، فأسند قيادة الجيش البرية إلى الكونت أوريلي"Oreilly"، وقيادة البحرية دون بيترو"don Pedro"، في 23 جوان انطلق الأسطول الإسباني من خليج قرطاجنّة ، وفي 30 جوان وصل إلى خليج الجزائر،وفي الفاتح جويلية اكتملت قطع الأسطول كلها وأرست في ميناء الجزائر [3].

ولقد جنَّدت اسبانيا جيشًا قوامه ثلاثة وعشرون ألفَ رجلٍ، منهم ألف فارس، وجمعت من السفن أسطولاً يتكون حسب الرّوايات الجزائرية، مما لا يقلُّ عن 500 مركبٍ[4]، بينما المصادر الأوربية تقدّرها بعشرين بارجة، وعشرون مدمّرة، وسبعة مراكب من نوع شباك، و344 باخرة شحن مزوَّدة بمائة مدفع، وعلم الجزائريون مبكرًا بالإستعدادات الإسبانية فاستقر الداي محمد عثمان باشا ومعاونوه بالجزائر وضواحيها،واستقدموا القوّات والفرق من البايلكات،ونادوا في النَّاس للجهاد[5].

بدأت الإستعدادات مع ظهور الطلائع الأولى للأسطول الاسباني ساحل الحراش، فهرعوا يستعدون لملاقاة العدو،وكان يتقدمهم الداي"محمد عثمان"، الذي أصدر أوامره بإعلان حالةالإستنفار في القوّات المتمركزة في الجزائر وضواحيها،والمقدّرة بحوالي 11897 مجندا في المعركة، واستدعى الفرق العسكرية من جميع البايليكات.وهنا يصف لنا ابن رقيّة الجديري، الإستعدادات الجزائرية لصدّ الهجوم الإسباني قائلاً: «...إنّ الداي محمد عثمان باشا بعث إلى صالح باي صاحب ناحية الشرق؛ لأنّه كان ينبّهه أن لا يفارق ناحية حمزة؛ بحيث يقدر أن يأتي إلى الجزائر في يومين أو ثلاثة، إذا أمره بالقدوم إلى الجزائر، وكذلك باي ناحية التيطري، وكذلك بعث إلى خليفة ناحية الغرب؛ لأنّ الباي كان مشتغلاً بحفظ مستغانم، وأيضا معترضًا بجهة وهران، إذ شاع بأنّ اللعين أراد أن يبعث جماعة من عسكر وهران إلى الجزائر عبر البرّ، وربّما يتمكن من الإغارة ناحية تلمسان، أو ناحية معسكر أو مستغانم، إن لم يكن الباي هنالك..».[6]

وممّا قرّره الداي"محمد عثمان باشا" أيضا في إطار استعداداته للمعركة، ضرورة تعاون جميع سكان مدينة الجزائربمختلف فئاتهم، في أعمال الدفاع والتحصين،أما الجيش فقد وزعت وحداته إلى ثلاث مجموعات إحداها تحت قيادة"حسن الخزناجي"، وكان مركزها "عين الربط"، والثانية بقيادة"علي آغا العرب"، ومركزها" وادي خنيس، بينما المجموعة الثالثة فقد أبقيت لحراسة الحصون

والقلاع الواقعة بالقرب من مدينة الجزائر،بقيادة وكيل الحرج[7]،الذي أوكلت له مهمة إبعاد أي قوة بحرية ،تحاول الإقتراب من مدينة الجزائر، وذلك بواسطة المدفعية الموجودة بتحصينات الميناء، والتّي تتوزع على برج البحرية، وبرج الفنار، وبرج السردين،والبرج الجديد، وأخذت القوات الجزائرية موقعها،مستعدةً للإلتحام مع العدو مع ظهور الأسطول الإسباني بخليج الجزائر، بعد أن أخبر النّاظُور المكلّف بمركز المراقبة ببوزريعة الداي قائلا: «...أنّ البحر كلّه تغطى بقلاع السفائن؛ بحيث لم تر بتلك الناحية فوق البحر إلاّ القلاع...»[8]

لقد كان لهذه الإستعدادات المبكرة، والتَّحصينات القوية، والفعالة لمختلف فرق الجيش،دورًا كبيراً في تطويق القوات الاسبانية، وإحباط مخطّطاتها التي ترمي إلى محاصرة المدينة والإستلاء عليها، لأنّ قيادات الجيش الاسباني عبر فرقاطة القديسة "كلارا"،اقتربوا من ساحل مدينة الجزائر، وتم رسم مخطّط دقيق للحصون، والمدافع، والبطريات وتفحص خليج باب الواد، وهذا من أجل تحديد نقطة إنزال القوات الإسبانية، فوجئ القائد وضباطه عندما شاهدوا أنّ المدافع، والبطاريات كانت تحمي جلّ المدينة من أقصاها إلى أقصاها و أصطدموا بتحصينات قوية ممادفعهم إلى اختيار خطة الإنزال البرّي، ثمّ الزحف على العاصمة وتم الإنزال في مصب وادي الحراش. [9]

بدأ الإنزال على الشاطئ الشرقي للجزائر، بين وادي"خنيس" و "الحراش"، واستمرت عمليات الإنزال حتّى تمّ حشد حوالي عشرين ألف جندي على الشاطئ، مع عدّتهم الحربية.وفي المقابل كانت القوات الجزائرية قد أخذت في الحسبان كل الإحتمالات الواردة،لتحركات القوات الإسبانية عبر ساحل المدينة،وقد وصف القائد الإسباني المكلّف بالإشراف عن عملية النزول البرّي، الأميرال"مازاريدو" (Mazarredo) ظروف تمركز الجيش الإسباني بالساحل المقابل لمدينة الجزائر بقوله: «...بعد أن تجمّعت الحملة في خليج الجزائر في الفاتح جويلية، طلب منّي "الكونت أوريلي" باعتباري قائدًا للأسطول أن أنزل إلى البر مباشرةً مع الأفواج الأولى للجيش،مصحوبًا باثني عشر قطعة مدفعية من عيار أربعة، يتبعها على الفور إنزال أثني عشر مدفعًا من عيار ثمانية، بالإضافة إلى ثمانية مدافع من عيار إثني عشر. وكانت الرياح قوّية يوم الثالث جويلية ممّا أعاق عملية الإنزال، التّي كانت مقرّرة في اليوم الرابع من جويلية، ولهذا كُلّفت بوضع الخطّة النهائية لنقل الجنود، وتعيين السفن التّي ستحملهم إلى الشّاطئ. على أن تنزل للبر قوّة قوامها سبعة آلاف وسبعمائة رجل، وتلتحق بهم بعد وقتٍ قليل قوّةً أخرى مكوّنةً من سبعة آلاف رجل.. »[10] .

لم يتسنّ للإسبان إنزال قوّاتهم إلاّ بعد أسبوع كامل من وصولهم إلى شاطئ الجزائر، نتيجة تردّد قائد الحملة من جهة، وهبوب الرياح التّي كانت تصعّب عملية الإنزال من جهة أخرى،وقد استغل الجزائريون بطء عملية الإنزال الإسباني على الساحل لإستقدام التعزيزات وتجنيد المتطوعين، وفي هذا يشير صاحب الزهرة النائرة في قوله: «...إن مكث العدو كان خيرًا إلينا؛ لأنّ قبائل العرب كانوا يجيئون من كل ناحية إلينا...»[11]

كما سمح لهم ذلك بالتموقع استعدادًا للإلتحام مع قوّات العدو؛ ففي الناحية الغربية المؤدية إلى مدينة الجزائر بين وادي خنيس وعين الربط، رابطت القوّة التّي كانت تحت قيادة"حسن الخزناجي"، وليس بعيدًا منها عسكر علي آغا العرب بالقرب من وادي خنيس[12]. أمّا إلى الشرق من ساحل الحراش نحو الجنوب، فاستقرّت قوّات"صالح باي" بين وادي الحميز والحراش، والمكوّنة من حوالي عشرين ألف جندي، تضم في صفوفها العديد من الفرسان.

ومن جهة الجنوب الغربي، رابطت قوّات مصطفى خوجة الخيل، وقائد فرق الصبايحية بناحية باب الوادي، متأهبة في انتظار التدخل في حالة تغيير قد يطرأ على خطّة العدو، بتحوله إلى الجهات الغربية من مدينة الجزائر.وبالقرب منها عسكرت فرق المتطوعين، من قبائل زواوة برأس"كاكسين" وذلك لتغطية الجهات الغربية من فحص مدينة الجزائر.بينما توزعت قوّات باي التيطري بسهل متيجة حتّى رأس "تمانتفوست" المقابل لوادي الحراش؛ بهدف تأمين خط الدفاع الخلفي، تقدّمت القوارب التّي تحمل الجنود نحو إلى الساحل بحذر، ولمّا وصلته بدأت أفواج الجنود في النزول إلى الشاطئ،وأثناء ذلك كانت السفن الحربية تلقي بنيران مدافعها على معسكرات الجزائريين في الجهة الشرقية،مركزةً على المنطقةالتّي كانت تحت قيادة"حسن الخزناجي"، وذلك لتأمين عملية الإنزال. بالمقابل كانت البطاريات الجزائرية تردّ عليها بالمثل .

نَزل الجنود الاسبان إلى البر وبيد كل واحد منهم بندقية، ورُمحًا برأسين من حديد لتستعمل كمتارس حول معسكرهم، وتعوق تقدّم الخيالة الجزائريين.كما أنزلوا معهم أكوامًا من الأخشاب مربوطة في شكل حزم،ومهارس البونبة والمدافع، وجميع عتادهم. وشرعت الفرق العسكرية في بناء الإستحكامات باستخدام تلك الرماح؛ غير أنّ التمركز الجيّد للقوّات الجزائرية، واستعداداها المبكر بالإضافة إلى التحصينات المتوفّرة، كان لها دور كبير في تطويق القوّات الإسبانية المتمركزة في الساحل، ومحاصرتها في مساحة ضيّقة بين مرتفعات الساحل بناحية"حسين داي"، وشاطئ البحر.

حاول الإسبان فكّ الحصار مبكرًا، عندما تقدّمت قوّاتهم نحو البساتين، والحقول الواقعة بمنحدرات الساحل بين الحراش ووادي خنيسلكنّهم تعرّضوا إلى مقاومة شرسة من طرف القوّات الجزائرية، التّي كانت متحصّنة بالهضبة ووسط أحراش الغابات،فكانت نيرانهم كثيفة وأكثر فعالية [13] وقد أسفرت تلك الإشتباكات على خسائر فادحة في صفوف الإسبان؛ حيث لقي جميع الجنود، الذين كانوا خارج المعسكر مصرعهم، وقُطعت رؤوسهم وتركت جثثهم ملقاة على الأرض[14] .

بعد اليوم الأول أستؤنفت المعركة بقوّة، وتحصّنت القوّات الجزائرية ببطارياتها وراء كثبان الرمل، حيث كانت تقصف معسكر الإسبان، محدثةً فيهم خسائر فادحة، وكان الإسبان ينقلون جرحاهم عبر القوارب إلى مركز الأسطول؛ لتلقي العلاج هناك[15] رغم كل هذه العمليات العسكرية لم يتم حسم المعركة، فكان لابدّ من القيام بعمل ما لحسم المعركة ضد الإسبان،.وهنا أشار"صالح باي"تجميع كل الابل التي كانت في معسكره وعددها خمسمائة، ثمّ هجم بها على المعسكر الإسباني والجنود من خلفها[16] وكان "الصالح باي" يهدف من وراء هذه الخطة إلى توفير الحماية لجنوده من وابل الرصاص المنطلق من معسكر العدو، وفي الوقت ذاته محاولة ارباك العدو وإشاعة الخوف في صفوفه،ولقد كان"صالح باي"في مقدمة المهاجمين شاهرًا سيفه، فتبعه الخزناجي والآغا وخوجة الخيل وباي تيطري وخليفة باي وهران، وما كادوا يصلون معسكر العدو حتّى اصطدموا بتلك الرماح المغروسة حول الإستحكامات، ولم يستطيعوا اقتحامها.وفي هذه الأثناء كانت طبانة وادي خنيس بمدافعها المشرفة على تجمعات العدو، والمواجهة لسفنهم تردّ بعنف على القصف المتواصل للسفن الإسبانية، واستطاعت أن تحدث فيها خسائر كبيرة، خاصّة عندما تمكن المدفعي"عمر برامقسيس"من توجيه مدفعين باتجاه الهدف الإسباني، ممّا مكّنه من إصابة سفن الإسبان، وتجمعاتهم في الصميم؛ فقد بلغ عدد القذائف الجزائرية في تلك الليلة خمسمائة طلقة، تسببت في تشتيت جموعهم وإغراق بعض سفنهم[17] .

أمّا عن هجوم"صالح باي"، الذي شنّه بقوّاته البالغة عشرين ألف جندي وفارس، فقد أفشل مخطط العدو الرامي إلى اختراق القوّات الجزائرية عبر مرتفعات الساحل، وأرغمهم على التراجع والتقهقر، والإلتحاق بالسفن دون محاولة منهم لتنظيم انسحابهم[18] ولمّا أيقن القائد العام أنّ المقاومة لم تعد ممكنة قرّر الإنسحاب، بدأت عملية الانسحاب و أعطيت الأوامر للسفن بالإبتعاد عن الساحل، ولمّا حلّ الليل أصبحت العمليات العسكرية عامّة في كل نقطة، وانتهت في حدود الساعة الثالثة من صباح يوم التاسع جويلية.غير أنّ ترتيبات الإنسحاب النهائي استغرقت أيامًا؛ حيث غادرت آخر سفنهم خليج الجزائر في 17 جمادى الأولى 1189هـ/15 جويلية 1775م.

ويبدو أنّ القائد العام"أورللي"لم يصدق ما حدث لجنوده، ولم يستسغ طعم الهزيمة فقرّر قصف مدينة الجزائر بالقنابل يوم 13جويلية، لكنّه وجد معارضة من أعضاء المجلس الحربي، فاضطر إلى التراجع عن قراره[19] ولقد استطاعت القوات الجزائرية الصمود أمام القصف السريع والمتواصل للإسبان، وفشلت كل محاولات التوغل، أو اختراق الجيش الجزائري، الأمر الذي أرغم الاسبان على التراجع دون تنظيم أنفسهم تاركين عددًا كبيرًا من القتلى والجرحى ، وكمية ضخمة من العتاد، والسلاح في ميدان المعركة، وتعرضت لهم القوات الجزائرية عند انسحابهم، فأسرت منهم العديد، واستولت على مغانم كبيرة، وبالمقابل استشهد من الجزائريين ثلاثمائة، وهذه الحملة يمكن تصنيفها ضمن حملات "شارل الخامس" ،لتضاف الى سلسلة النكسات الإسبانية في غزوها للجزائر،ولقد كان لفشل هذه الحملة الأثر البالغ في نفوس الإسبان .

حاولت اسبانيا من خلال تقاريرها، التقليل من وقع الهزيمة، من خلال نسج العديد من الروايات، والتذرع بمختلف الذرائع، وخلق المبررات المتعددة، مثل صعوبة الظروف المناخية، وهيجان البحر، والشمس الحارقة، إلى غير ذلك من التبريرات التي بقى الاسبان

يرددونها حتى بعد تصفية وجودهم من وهران، حيث ركزوا على العامل الطبيعي المتمثل في الزلزال، على أنه الدافع الرئيسي وراء انسحابهم [20]

إن الإسبان بالرغم من الخسائر الفادحة، التّي تكبدوها حاولوا كعادتهم التقليل من حجم تلك الخسائر لكن الحقيقة أن الجزائر ظلت حصنا منيعًا عن الأعداء، وهذا ما أكده صاحب مصنف الزهرة النيرة بعد حملة 1775م قائلاً: « ...وليعرفوا قدر الجزائر، إذ تُراب نواحيها معجون بدماء الكفار، اللَّهم أدمها دار جهاد، ومحل عزم، واجتهاد إلى يوم التَّناد [21].

2- حملة دون أنطونيو بارسيلو الأولى على مدينة الجزائر1197هـ/1783م:

شكل فيها الأسبان أرمادة عسكرية مسيحية مع القوات البرتغالية، والجنوية، والتوسكانية، وفرسان مالطا، بالاضافة إلى البحرية البابوية،وهذا لشن حملة مجددًا على مدينة الجزائر ، ولقد كان وراء هذه الحملة جملة من الدوافع هي:

-لم يكن من السهل على الإسبان أن ينسوا الهزيمة المذلّة، التّي منيوا بها على أسوار مدينة الجزائر في سنة 1775م.وما كان للبلاط الإسباني أن يطيق صبرًا على ذلك، دون الإسراع إلى محو آثار تلك الهزيمة للثأر من ، الهزيمة، التّي لحقت بحملة أورلّي.

- رغبة اسبانيا في استرجاع هيبتها الأقليمية و الدولية، ومحاولة التعويض بعد هزيمتها أمام بريطانيا و فشلها في استرجاع جبل طارق،

أسندت قيادة هذه الحملة إلى دون انطونيو دي "برسيلو"don Antonio de Barecelo"، ووصلت إلى ميناء الجزائرمايقارب ثمانين سفينة، ،منها أربعة بوارج بحرية كبيرة،وستّة فرقطات

واثني عشرمجموعة من القطع الأخرى، وانطلقت هذه الحملة كسابقتها من ميناء قرطاجنة[22] ، وتدخل هده الحملة في إطار السياسة الساذجة التي لازالت تطبقها اسبانيا في تعاملها مع الجزائر ويبدو من خلالها أنها لازالت لم تستوعب الدرس بعد حملاتها السابقة،وصلت الحملة الإسبانية إلى السواحل الجزائرية يوم29 جويلية 1783م ،لم يكن الداي"محمد عثمان باشا" غافلاً عمّا كان يقوم به الإسبان من استعدادات، وكذا اتصالاتهم السرية مع نابولي وجنوة وليفورنة و مالطا، لإقناعها بالإنضمام إلى الحلف الصليبي الذي يحظى بمباركة الكنيسة من أجل شن غارة صليبية على الجزائر،وكان في شهر ماي 1783م قد تلقى الداي رسالةمن سلطان المغرب الأقصى"محمد بن عبد الله"، ينبهه فيها من خطر الحملة التّي يتم الإعداد لها في إسبانيا [23]

لم يتأخر الداي في أخذ جميع الاحتياطات؛ حيث قام بجملة من الإجراءات العاجلة، استعدادا لمواجهة الحملة المنتظرة ومنها:

- استقدام الفرق العسكرية من البايليكات الثلاث؛ فوصل من بايلك الغرب قوّة مؤلفة من عشرين ألفا جندي ووصل من بايلك الشرق خمسا وعشرين ألف جندي ، و خمسة آلاف من بايلك التيطري[24]

- إجلاء المدنيين بعيدا عن مرمى القصف الإسباني.

- تفاديًا لأيّ حركة تمرد قد تصدر من الأسرى الأوربيين تم ترحيل 1548 أسير إلى عاصمة التيطري.

- تحصينُ المدينة وتقوية دفاعاتها، والشروع في انشاء سفينتين حربيتين لتعزيز قُوّة البحرية الجزائرية.

- سير الحملة:

بمجرد رسوّ الأسطول الإسباني اصطفت قطع منه قبالة المدينة، ثمّ شرعت في القصف،وفي اليوم الثاني المصادف لـ 30 جويلية خرجت من الميناء بعض سفن الأسطول الجزائري لمواجهة العمارة الإسبانية، واشتدّ تبادل إطلاق النار بينهما، ولم يتمكن الأسطول الإسباني من إصابة السفن الجزائرية بسوء؛لأنّ قذائفه كانت تسقط بعيدًا عنها[25] وفي الأول من شهر أوت شرعت مدفعيةالأسطول الإسباني في رمي الميناء؛ فقامت بطاريات الحصون الجزائرية بالردّ عليها بنيران كثيفة، ثمّ خرجت سفينتان جزائريتان، وقد شُحنت بعدد من القنابل ألقتها على الأسطول الإسباني، عندما اقتربت منه ثمّ رجعت إلى قواعدها دون أن تصاب بأذى،وهو ما شجعها على إعادة المحاولة ثانية ؛ حيث نجحت في مهاجمة الأسطول مرّة أخرى،لكن القصف المدمّر للسفن الإسبانية خلّف في هذا اليوم ثمانية أو عشرة قتلى، وعدد كبير من الجرحى من بينهم خُوجة الخيل[26]، وفي اليوم الثاني شرعت بطاريات الحصون في إطلاق نار على الأسطول الإسباني، لكي تضمن تغطية للسفينتين الجزائريتين، اللتين خرجتا من الميناء متبوعتين بثماني غليوطات، في محاولة منها لمهاجمة السفن الإسبانية، التّي تمكنت من إحداث خسائر كبيرة في مباني المدينة؛ حيث أصيب قصر الحكومة"الجنينة" بقذيفة،

بعد مغادرة الداي له بقليل باتجاه برج القصبة، وفي الرابع أوت اشتدت المعركة بين الطرفين ، وخرجت السفن الجزائرية لمهاجمة السفن الإسبانية مدعومة ببطاريات الحصون، وكان القصف الإسباني في هذا اليوم شديدًا مقارنة بالأيام السابقة؛ فقد أصيب خلاله قصر"الجنينة" للمرّة الثانية بقذائف عديدة.وتم استئناف المعركة مجددًا بين الجانبين يوم السادس أوت، وسط تبادل شديد لإطلاق النار ، أسفر على هدم بعض المنازل ،و في اليوم السابع اتخذت السفن الإسبانية مواقعها للقتال، فظهرت منها سفينتان فتصدى لها الأسطول الجزائري؛ حيث تم تبادلاً لإطلاق النار لمدّة ساعتين،وبعد هدوء نسبي استؤنف القتال في المساء ،وفي حدود السادسة مساء توقف القصف الإسباني..[27]

تجدّد قصف الأسطول الإسباني في اليوم التالي، لكن تبيّن أنّ قذائفه كانت تسقط في البحر دون أن تصيب هدفها،وبعد حوالي عشرة أيام من القصف الإسباني المتواصل على مدينة الجزائر، استعدّ الأسطول الإسباني مع صباح يوم السبت 10 رمضان/9 أوت للمغادرة؛ حيث تجمعت سفنه وبدأت تتجه نحو الشمال[28]،والجديد في هذه الحملة، وهو استعمال اسبانيا للسفن المعروفة باسم "اللنجور أو لانجون" كما ذكرها أحمد شريف الزهار، وعن الهدم الكبير الذي أصاب مباني المدينة بفعل السفن الإسبانية السريعة المسماة"اللَّنجور"، يقول أحمد الشّريف الزَّهار:«...لمّا بدأ الاصبنيول الحرب، بعث مولانا الباشا إلى الحاج محمد القُبطان وقال له: ماذا نفعل مع هذا اللنجورالذي أوقع في البلاد هدمًا كبيرًا ؟ فظهر للحاج محمد القبطان، أن يُعمّر زوارق كبيرةً كان فيها الجير المُعدُّ للبناء، ويجعل فيها مدافع، وعندما يقدم العدو باللَّنجور يقاتلهُ بها.وأذن له الباشا بذلك.....» [29]

وتذكر المصادر أن تلك السفن كانت من اختراع قائد الحملة دي انطونيو، وتعرف هذه السفن في اللغة الإسبانية بـ"La lancha"، وهي عبارة عن سفن خفيفة وسريعة الحركة، تحمل مدافع صغيرة على متنها، ولقد أطلق عليها مصطفي بن حسن خوجة اسمي البلاء أو المصيبة بسبب الخسائر التي لحقت بمدينة الجزائر من جرائها[30] .

3- **حملة دون أنطونيو بارسيلو الثانية 1784م** :

على الرغم من فشل الحملتين السابقتين، وتحطمها عند أسوار مدينة الجزائر، إلا أن الاسبان لم يتعظوا من عدم جدوى مغامرتهم العسكرية، ومع ذلك صمموا على تجديد الكرة مرة أخرى، وجمعوا هذه المرة أسطولاً أضخم، اشتركت فيه العديد من القوى المسيحية، مثل نابولي، مالطا، البرتغال، واصدر البابا "بيوس السادس" براءة بابوية، أقر بموجبها بمنع صكوك الغفران، وأعلن مباركته للحملة في منشور أعلنه 14 جوان 1784م[31]،مما يبرز الطابع الديني للحملة ولقد ارتبطت هي الأخرى بمجموعة من الدوافع هي :

1- إصرار اسبانيا على الحل العسكري في تعاملها مع الجزائر .

2- الدعم والتعاطف الأوربي مع اسبانيا في صراعها مع الجزائر،وهذا ما تعكسه مشاركة جنسيات متعددة في هذه الحملة.

3- تمسك الجزائر بموقفها الرافض لأي تقارب جزائري اسباني في ظل احتلالها لوهران والمرسى الكبير.

4-أثر الهزيمتين السَّابقتين على اسبانيا داخليًّا وخارجيًّا.

وكان الداي محمد عثمان باشا بدأ الإستعدادات منذ رحيل الحملة السَّابقة، ففي صيف عام 1783م قام بإصلاح ما تخرب من حصون المدينة وأصلح المراكب، وأمر ببناء خمسة مائة مركب جديد من نوع اللنجور، بعد أن عُثر على احدى هذه السفن في الساحل الجزائري، بعد فشل الحملة السابقة، وأمر الداي بصنع السفن على غرارها، مما شكل مفاجئة للاسبان في حملة 1784م ، ولقد سعى سلطان المغرب لدى الملك الاسباني لتأجيل هذه الحملة، إلا أنه رفض لأن الترتيبات الخاصة بالحملة انتهت، ومن غير الممكن إلغاؤها[32] .

سير الحملة:

استكمل الأميرال الإسباني الدون"بارسيلو" استعداداته العسكرية، بعد أن تمكن من جمع أسطول بحري مكوّن من130سفينة حربية منها:11سفينة نابولية و8 مالطية.أقلع الأسطول المسيحي من ميناء قرطاجنة، يوم 28جوان 1784م، ولم يصل إلى مدينة الجزائر إلاّ يوم 9 جويلية[33]

مع صباح اليوم الثالث من وصول الأرمادة الإسبانية؛ أي 12 جويلية ظهرت سبعون سفينة إسبانية من نوع"شالوب"، متخذة وضعية القتال،لكن السفن الجزائريةلم تمهلها؛حيث برزت لها ثلاث وستون سفينة، بعضها مزود بالمدافع الثقيلة،أخذ الأسطولان يقومان بحركة التفاف على خط متوازٍ، ولم يرغب الجزائريون البدء بإطلاق النار.لكن وفي حدود الساعة الثامنة والنصف، جاءت الإشارة من الحصون ببدء القتال؛ فشرعت السفن الجزائرية في رمي القذائف والقنابل على السفن الإسبانية،هذه الأخيرة بدورها بادرت إلى الردّ، حتّى أنّ الدخان الكثيف خيّم على ساحة المعركة ،فكانت القذائف الإسبانية تتخطى السفن الجزائرية بمسافات بعيدة، دون أن تصيب المدينة بأذى، وفي الساعة الحادية عشر انسحبت السفن الإسبانية إلى مجمع أسطولها، وبقي الأسطول الجزائري في ميدان المعركة[34]

وفي 15جويلية على الساعة السادسة صباحًا، بادر الجزائريون بإطلاق النار، وبقوا مسيطرين على الموقف، بينما كان الأسطول الإسباني يشكّل نصف دائرة تحميه سفن خفيفة على جانبيه، بدأ القتال على الساعة السادسة والربع وكان عنيفا،واستمر إلى غاية التاسعة والربع، انسحبت بعدها السفن الإسبانية من نوع الشالوب، لتفسح المجال للحراقات التّي استمرت تضرب بعنف، لكنّها انسحبت هي الأخرى، ليبقى الأسطول الجزائري محافظًا على مركزه[35]

خسر الجزائريّون في معركة هذا اليوم 12 قتيلاً و14جريحًا، وذلك من جرّاء انفجار أحد المدافع وبقيت مشكلة المدافع التّي تنفجر، فقدكانت أغلبية المدافع الجزائرية مصنوعة من الحديد ،لذلك كانت تنفجر بسبب عدم تحملها للحرارة العالية جرّاء الاستخدام المتواصل. ولعل كان ذلك واحدًا من بين الأخطاء، التّي رصدها القنصل الفرنسي"دي كارسي"(De Kercy) ، الذي كان شاهد عيان في الحملتين الإسبانيتين الأخيرتين على الجزائر، وسجل في تقريره الذي رفعه إلى حكومته نقاط ضعف الدفاعات الجزائرية،وطريقة الدفاع الجزائري.وهي المعلومات التّي استعانت بها وزارة الحرب الفرنسية خلال حملة ممّا جعل البحارة يطالبون بالمدافع البرونزية.

في يوم17جويلية برزت شالوبات الأسطول الإسباني على الساعة الثامنة،مكوّنة ثلاثة فرق، واحدة منها للدفاع عن الأسطول وحمايته ،والثانية لمقاتلة السفن الجزائرية، فيما كلفت الثالثة بالإقتراب من المدينة، وقصفها.بدأ إطلاق النارعلى الساعة الثامنة والنصف،لينتهي على العاشرة مسفرا عن قتيلين، وخمسة جرحى في صفوف الجزائريين، وفي يوم 18جويلية ومع ساعات الصباح الأولى، تقدمت السفن الإسبانية ،واصطفت في مكان القتال ،وبرزت لها السفن الجزائرية، التّي بادرتها بإطلاق النار معزّزة بنيران مدفعية الحصون، أمّا في يوم 19جويلية فلم يدم القتال سوى ساعة؛حيث توقف الإقتتال في حدود الساعة التاسعة، لتنسحب بعدها السفن الإسبانية إلى مركز الأسطول،لكن بعض الشالوبات الجزائرية تقدمت باتجاه الأسطول الإسباني، مهاجمة إيّاه فقاومتها سفينة الأميرال والسفن، التّي حولها وألقت عليها قنابل، لكنّهالم تحدث لها أية خسارة، مات في هذه الوقعة رجلان، وجرح خمسة، وفي يوم 22 جويلية شرع الإسبان في وضع ترتيبات الإنسحاب، وفي الغد23جويلية أقلع الأسطول الإسباني منهزما عائدًا إلى إسبانيا [36].

لقد اعتمد الجزائريون على أساليب دفاعية محضة، وبفضل هذه الأساليب استطاعوا إبقاء مدي القصف بعيدا عن المدينة، وحسب ما جاء عن لسان عبد اسباني استطاع الهروب من مدينة الجزائر،أنه من بين سبعة مائة قذيفة لم تسقط في المدينة سوى تسعة قذائف، وبذلك بقيت المدينة سليمة، وواجه الاسبان في هذه الحملة مشاكل متعددة، حسب ما يذكره صاحب الرسالة من شُح في المياه، وأن السفن المحملة بالمؤونة لم تصل، ولم يتبقى لهم سوى 700 قذيفة لم تكن جيدة الصنع، وعديمة الفعالية، بإضافة إلى تذمر جنود الاسبان من نوعية البارود، وعامل الجو المتمثل في هبوب الرياح الشمالية الشرقية التي عطَّلتهم، وحَدَّت من حركتهم، وهكذا كانت كل لحظة تَأخُر، تُكلِّف اسبانيا 200 ألف بيستاس pisitase [37] .

وبالإجماع تم التخلي عن قصف مدينة الجزائر، نتيجة للتفوق الجزائري، لكن إصرار بارسيلوا الذي أراد القيام بمحاولة هجومية أخيرة، والتي أراد من ورائها أما أن يقتل، أو ينجح في مهمته لكن كل قادته عارضوا هذه الفكرة، التي قد تعرّض سمعة البحرية الإسبانية إلى المهانة، وشرعوا في تحميل المدافع على السفن إستعدادًا للرحيل، وكان الجنرال "فيليب" يتجرع مرارة هذا

الانكسار، وتعرضت السفن الإسبانية أثناء انسحابها، إلى قصف كبير من طرف الجزائريين، وقُدِّرت خسائرها بنجو 300 رجل، مابين قتيل وجريح على حسب "استومبل"، الذي اعترف بصعوبة تقدير الخسائر، لأن سياسة اسبانيا الحربية تقوم على التكتم حيث حاول بارسيلوا أن يُحوِّل هذه الهزيمة إلى انتصار، من خلال تصريحاته لجريدة لاقازيت (Lagazzet)، يقول صاحب الرسالة: «... فهو الوحيد الذي رأى التحصينات قد دمرت داخل مدينة الجزائر، وهو الوحيد الذي يعلن عن تدمير عدد كبير من المراكب الجزائرية ... ».

وذكر في أخر رسالته قال: « هذه وجهة نظر حول البعثة سيدي الكونت، لم يبق لإسبانيا سوى إختيار طرقاً أخرى غير الغزو، فهي ليست غنية بالرجال لتقوم بهذا المشروع،...ولن تستطيع فعل شيء أمام رجال يدافعون عن بلدهم، إن اسبانيا إذا أرادت تحقيق سعادتها، عليها أن تقتنع بأن السّبيل الوحيد، هو سبيل المفاوضات[39]، وبهذا مثلت حملة 1784 أخر الحملات الإسبانية على الجزائر، والتي كان مصيرها كسابقاتها، لتنكسر هيبة اسبانيا، وشرفها على أسوار مدينة الجزائر، وهذا ما ذكره كورين شوفالييه منذ القرن 16م على أثر فشل حملة شارل الخامس قائلاً: « ... إنَّ مدينة الجزائر قد استحقت لقب المحروسة، حيث ستواصل في المستقبل سعادتها، وحظُّها الذي تحسد عليه، ويخاف منها الجميع... [00]».

نتائج الحملات الإسبانية

لقد ترتَّب عن الحملات الإسبانية في الرُّبع الأخير من القرن 18 م،جملة من النَّتائج شملت جوانب متعدّدة أهمها :

أ- النتائج السياسية :

1 – فشل كل المشاريع الإسبانية من أجل الإستلاء على مدينة الجزائر .

2 – وصول الإسبان إلى قناعة ثابتة ، وحقيقة راسخة، وهي ضرورة الوصول إلى حل سلمي تقدم من خلاله إسبانيا مجموعة من التنازلات،لوضع حد نهائي لهذا الصراع الذي طال أمده دون الوصول إلى أي نتيجة ، أو حسم من أحد الطرفين .

3 – سمحت نتائج هذه الحملات على الميدان،بدخول الجزائر للمفاوضات حول معاهدة السلام لعام 1786 م، وهي من موقع قوة جعلها تفرض العديد من الشروط التي كانت ترى فيها العديد من الدول الأوربية و المسيحية على أنها مُذلة لإسبانيا وهذا ما ذكره ويليام شالر في مذكّراته قائلاً :

«...عندما امتلأت نفوسهم بالإحتقار لهذه الدولة راح الجزائريون يكيلون لها الشّتائم،والإهانات ....ويضطرونها إلى دفع الأموال لأتفه الأسباب ... [39] »

4 – تراجع المكانة السياسية التي كانت تحضى بها إسبانيا داخل القارة الأوربية،لحساب قوى أخرى

خاصة بريطانيا التي بدأت قوتها تتنامى حتى أصبحت أهم قوة في الحوض الغربي للمتوسط .

ب- النتائج الاقتصادية:

1– لقد زادت هذه الحملات من متاعب الإسبان الاقتصادية لماتتطلبه هذه الحملات من إعداد،ومؤونة ونقل للمعدات، و ذخيرة حربية في الوقت الذي كانت تعاني فيه أزمة مالية خانقة ،وأوضاع اقتصادية غير مستقرة، ورغم هذالم تحقق إسبانيا ما كانت تأمله من هذه الحملات

2- لقد كلفت الطرف الجزائري خسائر مادية معتبرة،لكون أن هذه الحملات تُركز على عاصمة الأيَّالة،و التي يُمثل ميناءها أهم ميناء في الأيَّالة مما أدّى إلى تعطيل حركة النشاط التجاري،بالإضافة إلى الخسائر المادية التي لحقت جراء القصف المتواصل على المدينة،فكانت السلطات في كل مرة تلجأ إلى إعادة بناء الحصون،و القلاع،ومختلف المباني،ففي حملة 1783 قصفت مدينة الجزائر بـ7500 قذيفة من مختلف الأنواع و،الأحجام .

3- عرفت الفترة التي تلت حملت 1775 م نشاطا بحريًا كبيرا خاصة الفترة الممتدة من 1778-1782 م كانت حملة نتائج القرصنة يقارب 2 مليون فرنك و المتوسط السنوي 398.8 فرنك ما يقارب 400 ألف فرنك سنويًا وهي أعلى نتائج القرصنة في عهد الداي محمد بن عثمان باشا و الملاحظة إن الكثير من هذه الغنائم كانت أحرزت ضد الإسبان .[40]

4- لقد امتدت تأثيرات الحملات الإسبانية على الجزائر إلى ما بعد إبرام معاهدة 1786م ،فشكلت أهم المسائل العالقة بين البلدين، لما تسببت فيه من خسائر في البنايات ،والأرواح مما جعل الجزائر تطالب الطرف الاسباني بتعويضات مالية ، وكانت هذه القضية محل مراسلات رسمية بين قادة البلدين ، ففي رسالة بتاريخ 18 فيفري 1787م من الداي محمد عثمان باشا إلى الملك الاسباني كارلوس الثالث، حدثه فيها عن المبلغ الذي اقترحته الجزائر كتعويض عن الأضرار التي لحقت البلاد من جراء القصف الاسباني لمدينة الجزائر، خلال حملتي 1783 و 1784م ، وقدرها الداي بمليون ريالرغم أن أعضاء الديوان في أول الأمر طالبوا بتعويض إجمالي قدره ثلاثة ملايين قرش اسباني، فيما التزم المندوب الأسباني بدفع 400 ألف سكة جزائرية أي ما يعدل أربعة ملايين جنيه تورنوا ، وبعد أخذ و رد اتفق الطرفان على تحديد مبلغ التعويضات بمليون قرش اسباني مع الهدايا القنصلية التي ترك أمر تحديدها إلى وقت لاحق،حيث انتهى الاتفاق بشأنها رفعها إلى 291.800 قرش اسباني، يكون نصيب الداي منها 60 ألف قرش، والباقي لموظفي الدولة حسب رتبهم، واستحقاقاتهم ابتدءًا من خوجة الخيل الذي صرفت له 20 ألف قرش.

ج- النتائج الإجتماعية :

رغم أن كل طرف خلال هذا الصراع حاول التقليل من الخسائر البشرية في مُعسكره لكن من المؤكد أن هذه الحملات خلّفت خسائر فادحة في الأرواح فالأميرال جوزيف دي مازاريدو حاول في تقريره السري لعام 1775 م التخفيف من وقع الهزيمة، و مجمل ما ذكره من خسائر بشرية قُدّر بحوالي 2279 قتيلاً، بينما تُحصي المصادر الجزائرية ما بين 200 إلى 400 شهيد، و في حملة 1783 م أدى القصف المتواصل على المدينة، إلى استشهاد حوالي ثلاثمئة من المدنيين و 100 عسكري

بينما يذكر صاحب مخطوط تاريخ مجيء الصبنيول ستة و أربعين شهيدًا ، وفي الحملة الأخيرة لعام 1784 م أستشهد 130 مابين مدنيين و عسكريين ، بينما الطرف الآخر يذكر السيد " استورميل " أحد فرسان مالطا الذين حضروا الحملة :«... لم استطع أن أتحصل على الخسائر الكلية لأن سياسة الإسبان تقوم على اخفاء مثل هذه الأمور ...وقدر حوالي ثلاثمئة رجل ما بين قتيل وجريح..»

.

ولقد كان من نتائج هذه الحملات تزايد عمليات الأسر من الطرفين ففي صيف عام 1775 استولى قرصانان من جزيرة ابيزا "Ivisa" على سبع سفن جزائرية ،وثمانين أسيرٍ من السواحل الجزائرية ، وفي أوت 1777م تمكنت بعض المراكب الإسبانية من احتجاز سفينة فرنسية،تدعى سانت فكتور"Sant .Victor"، أمام مدينة الجزائر و عليها 183 حاجا جزائريًا،وظلوا في حوزة الإسبان حتى شهر فيفري 1778 ولإرضاء الجزائر قامت الغرفة التجارية لمرسيليا بدفع مبلغ مالي مقداره 185.964 جنيه مقابل إطلاق صراحهم [41].

ومما يعكس ازدياد عمليات الأسر في هذه الفترة ،انه خلال عام 1773 م قامت إسبانيا بإطلاق ما لديها من الأسرى الجزائريين و عددهم 1106 مقابل إطلاق 570 أسير من الإسبان، بيد أنه في العام الذي تلى حملة 1775 م ابرم الطرفان اتفاقًا لتبادل الأسرى، فأطلقت إسبانيا 1200 أسيرا مسلمًا كانوا مسخرين للتجذيف،وفي المقابل أطلقت الجزائر سراح 712 أسيرا مسيحيًا إسبانيًا مقابل مبالغ مالية، وفي سنة 1783 م جدّد الإتفاق السابق، فأطلقت إسبانيا سراح 1106 أسير جزائري و أطلقت الجزائر من جانبها 570 أسيرا إسبانيًا .

- و يؤكد الشريف الزهار انه خلال 1775 م ،تم إلقاء القبض على عدد مهم من الأسرى الإسبان قائلا: «... سَافرت المراكبُ الجهادية في أثرهم و غنموا منهم واتوا بأساري ... وكان السَّماسرة يُنادون عن الأساري و قيمة كل أسير منهم مائتا دورو يملكونهم مدة ما أقاموا أساري فإذا أتى الفداء يفدونهم بألف دورو لكل رأس، بينما يذكر صاحب الزهرة النائرة، إن كلَّ من تم القبض عليه قُتل لأن الداي محمد بن عثمان أمر بذلك، ووعد لكل من يأتي برأس أحد الجند عشرة دنانير

د- تنامي الصراع الديني:

لقد ارتبط الصراع الجزائري الاسباني منذ القرن 16م، بالصراع الديني بين المسيحية و الإسلام، و لقد كان لهذا الجانب، الأثر الواضح في الحملات الإسبانية على الجزائر، ففي كل الحملات، حاول الملك الاسباني أن يُضفي عنها الصبغة الدينية، لتقوية عزائم جنده، كما كان لوقع أي هزيمة للاسبان، أثره في العديد من الدول الأوربية المسيحية، و هذا ما ظهر جلّيًا في حملة 1784م، حيث

تم إشراك العديد من الأمم المسيحية، مثل نابولي، مالطا، البرتغال، لقد كانت هذه الحملة ذات طابع ديني بمعنى الكلمة، وهذا بتزكيةٍ من البابا بيوس السادس، الذي بارك هذه الحملة؛ حيث أصدر بيانا منح فيه البركة و الغفران، لكل مسيحي يشارك فيها و أصدر منشورًا في 14 جوان 1784 م بهذا الشأن.

بالمقابل؛ كانت تتم عمليات التعبئة في صفوف الجزائريين من طرف رجال الدين، من أجل حثّ الناس على الجهاد من أجل ضمان مشاركة أكبر عدد من المتطوعين، و قد وصف الزهار ذلك الحماس قائلاً : «... وقت الخروج لملاقات العدو ، تجد الناس يزدحمون على الركوب معهم، و لا يصل لذلك إلا الرجل الشجاع ... » و جاء في كتاب مصطفى بن حسن خوجه عن مدينة الجزائر قوله : «... فإن الله قد فضلك على سائر البلدان بكونك دار للجهاد ...[42] ».

و نجد أن العديد من الكتابات ، تعكس حقيقة الصراع الديني في تلك الحقبة، فمن خلال عناوين بعض المصنفات، يتضح هذا الجانب، مثل كتاب "التّبر المسبوك في جهاد غزاة الجزائرو الملوك"فقد جاء في مقدمة هذا الكتاب : « ...الحمدو لله الذي أنعم علينا بالجهاد، ووعدنا بإحدى الحسنيين يوم التناد ،وأحسن الينا بالنُصرة على عبدة الأصنام والقوم العناد ....وأخبر النبي عليه السلام أفضل أعمال أمتي الجهاد،والصلاة والسلام على محمد الذي أمر بالجهاد.... ».

وأضاف قائلاً: « ....اسبانيول كافري خذلهم الله ودمرهم وشتت شملهم ...رئيس الغزاة والمجاهدين محمد باشا... » وختم كلامه: « ... والصلاة والسلام على من كسر شوكة الكافرين.... [43]». و ماجاء في الزهرة النيّرة : «..... الحمد لله الذي وعد الموحدين بالغلبة و النُصرة وجزى المشركين بالخذلان والدبرة و الصلاة و السَّلام على من بعث من أكرم الخلق قبيلةً و عشيرةًو حرّض المؤمنين على القتال بكرةً و عشيّةً....و بعد فهذه أوراق تحرك على الجهاد أرباب القلوب الناضرة.... »ويذكر صاحب الزّهرة النيّرة، أنّ الدافع وراء تحريره هذه الأوراق، هو حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: « من رابط فوق ناقة حرّمه الله على النار . »، فمجمل هذه الكتابات، تنقل لنا طبيعة الصراع السائد في تلك الفترة، وتُبرز دور رجال الدين في دعم السلطة السياسية.

خاتمة :

لقد كان للظّروف السّياسية والاقتصادية، الأثر البارز في توجُّه طرفي النزاع إلى الخيار السلمي ووضع حد لحالة التوتر والعداء التي استمرت لما يقارب ثلاثة قرون، ولم يجن منها الطرفان أي مكاسب سياسية أو اقتصادية، لأن الإعتماد على الحل العسكري زاد من متاعب الجانبين، فمن الناحية السياسية هو استمرار لحالة اللااستقرار ، أما من الناحية الاقتصادية ازدياد النفقات العسكرية كان على حساب الوضع الإقتصادي خاصة الطرف الإسباني، الذي كان يعاني ضائقةً ماليةً خانقة خلال هذه الفترة .

فكل هذه المعطيات مجتمعةً، جعلت اسبانيا تقتنع مع مرور الوقت، بضرورة التَّخلي عن الحلول العسكرية، والتوجه إلى بدائل سياسية سلمية، قد تجني من ورائها مالم تحققه حملاتها العسكرية التي زادت من وضعها تعقيدًا على المستويين الداخلي و الخارجي، فقد كان لفشل هذه الحملات على مدينة الجزائر دور كبير في رسم معالم المرحلة القادمة للعلاقات الجزائرية الإسبانية، وفرضت على الطرف الاسباني تقديم العديد من التنازلات، مقابل التوصل إلى معاهدة سلام عام 1786 م، والتي مثَّلت تحوُّلاً جذريًّا في طبيعة العلاقات الجزائرية الإسبانية، والتي ستفتحُ آفاقًا جديدةً في العلاقات بين البلدين، من خلال التَّوصل إلى تسوية العديد من المسائل الخلافية بالإضافة إلى تطوير مجالات التعاون خدمة للمصالح المشتركة.

الهوامش:

(1) محمد خير فارس: **تاريخ الجزائر الحديث**، ط1 مكتبة دار الشرق، بيروت، لبنان 1979م. ص115.

(2) شكيب بن حفري : **العلاقات الجزائرية الاسبانية في القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوط عثماني**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ع1، ص 124.

(3) Adrien Berbrugger: **Expédition du conte d'Oreilly contre Alger en 1775**, R.A N° 1864, vol 8.p173.

(4) ناصر الدين سعيدوني: **دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر** ، 2ج ، م و ك ، الجزائر د ت ، ج2، ص 156.

(5) محمد بن محمد بن عبد الرحمان التلمساني الجديري : **الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر، حين أغارت عليها جنود**

الكفرة الفجرة، مخطوط نشره، سليم بابا عمر، مجلة تاريخ وحضارة المغرب عدد 03، 1967م. ص26.

(6) ناصر الدين سعيدوني: **دراسات...**،المرجع السابق، ص 157.

(7) محمد بن محمد بن عبد الرحمان التلمساني الجديري : المرجع السابق. ص 26.

(8) Adrien Berbrugger: Op, Cit.p174.

(9) Joseph De Mazarredo: **Expédition D'O'Reilly contre Alger en 1775**, in R.A, Alger N° 1864, vol 8.p 256-257.

(10) محمد بن محمد بن عبد الرحمان التلمساني الجديري : المرجع السابق. ص27.

(11) ناصر الدين سعيدوني: **دراسات...**، المرجع السابق ، ص 159.

(12) Adrien Berbrugger: Op, Cit.p 179.

(13) Charles Féraud : **Deuxième récit indigène de l'expédition d'Oreilly en 1775,** in R.A, Alger 1865, vol 9.p 185.

(14) Joseph De Mazarredo: Op, Cit.p 262.

(15) مجموعة الوثائق الوطنية : **تقرير الحملة الإسبانية على الجزائر**، مخطوط ، مج 3190 ، ملف 2 ، المكتبة الوطنية الجزائرية ، الجزائر.رقم 13.

(16) ناصر الدين سعيدوني: **دراسات...** ، ص 160.

(17) ناصر الدين سعيدوني:**المرجع نفسه** ، ص 162.

(18) Joseph De Mazarredo: Op, Cit. P265.

(19) ناصر الدين سعيدوني: **المعاهدة الجزائرية الإسبانية 1791**، مجلة الدراسات التاريخية، عدد07، الجزائر 1993م/1414هـ، ص79.

(20) محمد بن محمد بن عبد الرحمان التلمساني الجديري : المرجع السابق. ص 32.

(21) إبراهيم سعيود: **لمحة عن الصراع الجزائري الايطالي خلال العهد العثماني**، مجلة الدراسات التاريخية ، عدد07، 2007. ص 209.

(22) يحي بوعزيز: **الموجز في تاريخ الجزائر**، 2ج ، ط2 ، د م ج ،الجزائر1999م ، ج2 ، ص318.

(23) Grammont (H.D de): **Histoire d'Algérie sous la domination Turque**, Editions Bouchine, Paris, 2002.p 267.

(24) Charles Féraud : **Les Trois attaques**...R.A, 1876, vol.20. p305.

(25) : Ibid. p306.

(26) : Ibid , p311.

(27) : Ibid . p312.

(28) محمد بن محمد بن عبد الرحمان التلمساني الجديري : االمصدر السابق، ص32.

(29) شكيب بن حفري : المرجع السابق، ص 128.

(30) إبراهيم سعيود: المرجع السابق، ص 209.

(31) يحي بوعزيز: المرجع السابق ، ص318.

(32) Henri de Grammont Op, Cit. P267.

(33) Charles Féraud : Op, Cit p 315.

(34) M.d'estourmel: **Entreprise de don Angelo Barcelo contre Alger (1784),** R.A N26 .1882.p 228.

(35) M.d'estourmel. Op, Cit p316.

(36) : Ibid.p229.

(37) : Ibid.p 227.

(38) مروش المنور: **دراسات في العهد العثماني الأسعاروالمداخيل**، دار القصبة للنشر الجزائر، 2009، ، ص 468 .

(39) ويليام شالر : **مذكرات ويليام شالر (1816-1824)** ، تعريب و تعليق و تقديم إسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1982 ، ص 133 .

(40) مروش المنور: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني العملة، الأسعاروالمداخيل**، دار القصبة للنشر الجزائر، 2009، ، ص 468 .

(41) عبد القادر فكاير: المرجع السابق ، ص 193

(42) مصطفى بن حسن خوجة: **التبر المسبوك في محاربة غزاة الجزائر والملوك** ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر،رقم 1640،ورقة 2 .